أعد لك اسماء ضحايانا جميعها ، ولكني سألفظ اسم ضحية واحدة : وطني !..

تحدثني عن « فاوست » وتقول انه وجد الخلاص في خلق بلاد عجائب جديدة . وتقول لي ان ثمن خلاصه كان التضحية بمسنين أبرياء . وتعترف بأن فاوست لم يصنع هذه التراجيديا ، وانما هي من صنع الشيطان . ثم تمد أبعاد هذه المأساة على حياتك الحاضرة ... حياة القتال والحاجة العميقة الى السيطرة على الحياة يوما بيوم .

يعجبك اعتراف الخصم في لحظة صدق نادرة ، بعد سنين من ادعاء العذاب وارتداء ثياب الضحية . ويعجبك أكثر من ذلك أنه يعترف باختياره دور الشيطان . ثم تسأله عن جدارة الحياة كما حددها فاوست ، فيقول لك ان معيار هذه الجدارة هي القدرة على السيطرة على الحياة . فترتاح الى فرحك بمحاولة السيطرة من جانبك . وما كنت بحاجة الى ذرائع ، ولكنك عاجز . ان سؤالا آخر يبقى معلقا : هل وجد الخلاص بخلق بلاد عجائب ؟ لقد أقنع نفسه وأقنع الاخرين بأن هذه البلاد من صنع يديه وعقيدته المسلحة . انه يتكلم عن انتماء الجدارة بطريقة أخرى ، ليس مهما أن تقول ان جدارته خرافة ، فلم تكن بلادك صحراء من قبل . ولكن الاهم من ذلك كله أن تبرهن جدارتك بالطريقة ذاتها ، كيف استطاع أن يصنع الحالة التي تبيح له حق الكلام عن الجدارة... بالعنف طبعا . الاقوياء هم الجديرون . والضعفاء يكونون دائما ضعفاء في الحجة ... ثم تقنع بجدوى الايام القادمة : ألحق وهم بلا قوة ، والقوة حماقة بلا حق . وقد كنت، طيلة حياتك ، صاحب حق بلا قوة ، وضعيفا بحماقة . ولم تكن شكواك المستمرة من الظلم دليل حرص على العدالة بقدر ما كانت تعبيرا عن غياب القوة . وأنت الآن قوي ... قوي ... قوي .

وقد كنت ممتلئا بالموسيقى والقابلية على استيعاب المفاجآت في ذلك الصباح الساخن لحظة قالت مذيعة باللغة العبرية : « صرح ناطق عسكري بأن مجموعة من المدرعات المصرية اتجهت نحو حدودنا ، وصدرت الاوامر الى قواتنا بالتصدي لها » ثم استمرت موسيقى الصباح الناعمة ..

٦

ابتدأ كل شيء ،

وانتهى كل شيء .

وبين البداية والنهاية ، خانك الفرح الذي كنت تحذره دائما . كل شيء يتحول من حجارة الى أفكار . تخرج فلسطين منك بلا وداع . كنت في المخبأ معلقا على حبل الفارق بين يومين لا يتشابهان . ليسكت الوطن قليلا . لقد وقعت الخصومة بينك وبين الحياة ذاتها . يأخذك الزلزال ويطرحك أرضا ، عادوا الى اورشليم : الجنرال ، والكاهن ، والزانية . « لن نخرج من هنا الى الابد » . نفخوا في الصور وصلوا ودقوا رؤوسهم بحجارة الحائط القديم ، حتى سالت دماؤهم . لا حرب بلا دماء ، ولم يخسروا دما كثيرا في الحرب ، فليعلنوا ثمن الحرب تطوعا وتبرعا لحجارة الهيكل . تسمع أصواتهم عبر الراديو . لقد وصلوا الى الرب عبر جثث أهلك التي لم تدافع عن نفسها . العنف مرة أخرى . العنف يعلن جدارته . وبدعاوي الحق لا تأخذ شيئا ولا تستطيع الاحتفاظ بشيء . أنت لا تبكي ، عادة ، ولكن سقوط القدس يعني سقوط الدموع . توقظك صلواتهم ، ترفع ستار نافذة المخبأ ، بعد يومين ، فيجتاحك شلال الضوء الزاحف من حيفا التي كانت غارقة في التعتيم الكاذب ... لم تر ناسا ، قبل اليوم ، قادرين على الفرح الوحشي بمثل هذه الطاقة . دقات طبول وصفارات أطفال وأضواء وأضواء كثيرة . لم يفرحوا بسقوط القدس والضفة وسيناء والجولان